الندوة كانت محكومة بظرفها الزمني والأيديولوجي:

نزار قباني موال دمشقي يُكرّم بعد ثماني سنوات على الغياب

دمشق ـ «القدس العربي»
ـ من أنور بدر:

تأتي الندوة التكريمية حول الشاعر الراحل نزار قباني استكمالاً للتعاون ما بين وزارة الثقافة السورية ومؤسسة جائزة «عبد العزيز سعود البابطين» للإبداع الشعري، حيث سبق لهما أن انتديتا حول الشاعر «عمر أبو ريشة» ثم «بدوي الجبل».

بدأ حفل الافتتاح في مكتبة الأسد بدمشق بالنشيد العربي السوري، ثم ألقيت كلمة المشاركين في الندوة لعبد الإله عبد القادر من العراق، ثم كلمة مؤسسة البابطين للإبداع الشعري، فحاولتا الإحاطة بأهمية هذه الندوة والتي يشارك فيها دارسون وباحثون من مشرق الوطن العربي ومغربه، جاؤوا إلى دمشق للاحتفاء بنزار قباني الشاعر الذي كتب بأحاسيسه أجمل الشعر.

ثم تحدث وزير الثقافة الدكتور رياض نعسان آغا واصفاً القباني بأنه: كان نسمة من نسائم الشام، تأخذ الندى من بركة الدار.. وبأنه ذاك الشاعر الوطني بامتياز الذي صرخ في وجه القبح العربي، مضيفاً أن الشام التي أنجبت الياسمين كان لا بدّ لها أن تنجب شاعراً كنزار يُخلد هذا الياسمين.

وخلص إلى القول: نحن أمة لا تدع الشعر حتى تدع الإبل الحنين، وأنه حينما نكرّم نزار فإننا نكرم مجد الأمة، ومجد الأمة الشعر والإبداع والعبقرية.

وتم في ختام جلسة الافتتاح تقديم فيلم تسجيلي بعنوان «نزار قباني موال دمشقي» عرض لمكانة الشاعر وحضوره الأدبي، وجماهيريته بين القراء، مقتبساً قوله: «إذا صرخت فمن أجل أن يكون وطني أقوى».

المفارقة أنه مع انفضاض جلسة الافتتاح التي غصت فيها قاعة المحاضرات في مكتبة الأسد بالحضور، ومع بدء محاور الندوة، كان قد تبخر الجمهور الرسمي للشعر، ولم يبق إلا القليل من المشاركين بالندوة ومثلهم من المهتمين بالشاعر وشعره، تابع أغلبهم الندوة في أيامها الثلاثة، وفي محاورها التي طغى عليها الخطاب السياسي والنقد الأيديولوجي في قراءة شاعر كان عاشقاً من الطراز الأول، وكان شاعر المرأة بجدارة، وقد تطرقت بعض المحاور في الندوة لهذا الجانب، لكن فيما يبدو أنه الظرف العام في المنطقة الذي تزامنت الندوة مع ارتفاع حرارته بعيد الحرب الإسرائيلية العدوانية على لبنان، وكذلك الرعاية الرسمية للندوة من قبل وزارة الثقافة، شكلت عوامل تغليب للجانب السياسي في شعر نزار على شعره العاطفي والغزلي، حتى أن أحد الحضور هاجت به الحمية، فصرخ موجهاً التحية إلى المقاومة اللبنانية وسيدها حسن نصر الله. مما أثار غضب رئيس الجلسة د. عبد الرحمن الوصيفي من مصر الذي قال: «نحن لا نتكلم عن المقاومة الآن، بل نتحدث عن شعر نزار، ولا أسمح لأحد بالخروج عن الموضوع»!!!.

عبر ما يزيد على /28/ بحثاً قدمت في هذه الندوة، نلاحظ أن ما يقارب العشر دراسات اهتمت بالجانب النقدي لتجربة الشاعر في مجالات قد تضيق أو تتسع وفق خيارات كل باحث. فيما اهتمت ثماني دراسات بتقصي الجانب السياسي والقومي لديه، وأقل منها عدد الدراسات التي توقفت مع صورة المرأة في شعر نزار، وهناك بحثان تقصيا ما يشبه السيرة الذاتية، فيما تحدث الأستاذ ياسر المالح عن بحر الأغاني عند نزار قباني. مؤكداً أنه قد غنّى ولحّن من شعر نزار وقصائده ما يفوق كثيراً ما غُنّي لغيره من شعراء القرن العشرين مجتمعين.

وأنا أعتقد أن الغنائية في شعر نزار هي من المسائل التي كانت تحتمل وقفة أكبر من قبل هذه الندوة، حتى لو خصصت لها أمسية غنائية على هامش الندوة، أو تسجيل لإحدى أمسيات الشاعر الكثيرة، والتي يؤكد فيها تفوقه على الكثير مما غُنّي أو لحّن له.

هناك مسألة هامة تطرّق لها أغلب الباحثين في هذه الندوة، وهي علاقة الشاعر بمدينته، أو حضور دمشق في وجدان الشاعر وقصائده، دون أن يُفرد عنوان أو محور لهذه الموضوعة المهمة، وهاك بعض مما قاله في دمشق:

«فرشت فوق ثراك الطاهر الهدبا
فيا دمشق لماذا نبذ العتبا
حبيبتي أنت فاستلقي كأغنية
على ذراعي ولا تستوضحي السببا
أنت النساء جميعاً ما من امرأة
أحببت قبلك إلا خلتها كذبا»

بينما أفرد الشاعر الدكتور نذير العظمة بحثاً لصورة النهد في شعر نزار قباني، دون أن يشير إلى المقارنة مع الشاعر حامد حسن الذي ظهر منتصف القرن المنصرم مع ظهور نزار الذي لقب بشاعر المرأة فيما اختص الأول بلقب «ملك النهد»، وأعتقد أننا لو اخترنا ثلاثة محاور من شعر نزار قباني حسب أهميتها، لقلنا محور المرأة أولاً ثم دمشق، وأخيراً المحور السياسي.

تحت عنوان «النضال المسلح في شعر نزار قباني» تحدث الدكتور عبد الرحمن الوصيفي من مصر، فأكد أن شعر نزار قباني السياسي وثيقة أدبية رفيعة المستوى، إذ واكب الصراع العربي الإسرائيلي بكل أبعاده، ويحمل رؤية سياسية لاستعادة التراب المغتصب، ورأى الدكتور الوصيفي أن أهمية هذه الرؤية تعود لفهم نزار طبيعة العدو التوسعية، ومن ثم يرى نزار بأن القوى المسلحة والنضال المسلح هو الطريق الوحيد لكسر ذراع العدو، فهو يعلم أن العدو لا يفهم إلا لغة القوة لذلك نراه يتحدث بداية عن العمل الفدائي المسلح الذي يرى فيه نزار الأسباب الحقيقية للنصر، وأن المقاومة المسلحة هي الطريق الوحيد لإخراج العدو من هذه الأرض.

وعن مركزية الانتماء الوطني في شعر نزار قباني تحدثت الدكتورة «مها خير بك ناصر» عن رفضه لتخاذل بعض الأنظمة العربية، وعن خيبته وآلامه وجراحاته واغتيال أحلامه، فضمن خطابه وجعه الإنساني الكوني، وتسللت إلى قصائده أسماء بلدان وعواصم ومدن عربية وعالمية تبرهن عن ارتباط نزار الوجداني ببعضها، وعن انتمائه الحضاري لها، ولكن دمشق كانت الأكثر حضوراً في كل ما كتب، ورأت أنه رغم تنوع موضوعاته إلا أنها لم تتحرر من البيئة الدمشقية التي تركت في نفسه جرحاً يروي شعره، فكانت دمشق مركز انتمائه الدمشقاني والاجتماعي والنفسي والعاطفي والإنساني، فلم يطمح إلى الانتماء إلى وطن كوني مطلق، بل جعل من دمشق الوطن الكوني.

فيما رصد الدكتور سلطان القحطاني القصائد الشعرية السياسية والقومية، منذ أول قصيدة قالها، وفجر فيها مشاعره السياسية والقومية، ورأى الدكتور القحطاني أن أبرز مظاهر حياة الشاعر السياسية برزت منذ قصيدة «خبز وحشيش وقمر»، التي هاجم وكشف فيها الخمول العربي، واعتبر أنه مع هذه القصيدة سطع نجم الشاعر، واستطاع أن يجعل للخطاب الشعري حضوراً في المشهد الثقافي والفكري، وقد ساعده على ذلك تعقيد الظروف العربية، وتراكم الهزائم النفسية وخلق وعي بالمشكلة الكبرى في حياة العرب، ووجد الباحث أن شعره السياسي برز على الساحة العربية بعد هزيمة حزيران (يونيو) 1967، وتناول في قصائده موقفه السياسي والقومي من القضايا العربية، وموقف العالم منها.

أما الدكتور «وفيق سليطين» فقد تناول بالدراسة والبحث قصيدة نزار «تقرير سري جداً عن بلاد... قمعستان» والتي رآها أنموذجاً ينطبق على مُجمل أعماله السياسية بنصوصها المتجاوبة والمتقاطعة. في حين استعرض الدكتور «محمد مقدادي» مواقف نزار السياسية والقومية من خلال تفاصيل حياته الدبلوماسية والثقافية، وتعبيره السبري والذاتي عن التحولات المجتمعية العاصفة بالوجود العربي منذ نكبة عام 1948/ وانتهاءً بالحرب اللبنانية عام /1982/ وتداعياتها اللاحقة، ولم تسقط من أشعاره مخاطر الهيمنة الأجنبية بدعم من الولايات المتحدة لـ«إسرائيل» والتصهين والاعتداءات المستمرة على فلسطين ولبنان.

وتأكيداً على مواقفه القومية والوطنية أشار الأستاذ «أحمد الخوص» إلى مواقف نزار قباني من العدوان الثلاثي على مصر مُشيداً ببطولة الشعب المصري وكفاحه بكل فئاته، كذلك أشار إلى بطولة المناضلة الجزائرية «جميلة بوحيرد» التي كان لها موقف بطولي ضد الاستعمار الفرنسي.

في الاتجاه الثاني للندوة تحدث الأستاذ «غسان كلاس» عن نزار قباني في رسائله الشعرية، كما تحدث الأستاذ «محمد طربية» عن النثر في أدب نزار قباني، مؤكداً أن ما كتبه نثراً يشكل ثلث إبداعه تقريباً، أما الدكتور «خليل موسى» فقدم قراءة عن تجليات الفضاء المفتوح في شعر نزار موزعاً إياه ما بين الفضاء المعجمي المفتوح، والفضاء الاجتماعي المفتوح، وصولاً إلى الفضاء النصّي المفتوح.

من جهة ثانية اعتبرت الدكتورة «لطيفة إبراهيم» أن شعر نزار قباني يُشكل تعرية لزمن قائم وانفتاح على زمن شعري متجذر في رحم اللغة وإيقاعاتها واستعاراتها ورموزها. أما الدكتور «صالح أبو إصبع» فتوقف مع أهمية نزار في تحرير القصيدة العربية الحديثة من أغلالها الكثيرة الإبداعية والاجتماعية، مقدماً رؤيته من خلال ثلاث زوايا: الشعر كوثيقة إبداعية، والشعر تجسيد للإبداع، وما كتبه نثراً ليعبر عن تصوره للفن عموماً وللشعر خصوصاً. ثم قدم الدكتور «عبد الله أبو هيف» قراءة شبه ببلوغرافية للنقد الخاص بشعر نزار قباني والمتزامن بكل مرحلة مرّ بها الشاعر.

الكاتب «محمد صابر عبيد» من العراق قدّم دراسة سيميائية حديثة، لعلاقة الشاعر بالمفردات اللغوية من خلال القصيدة أو السيرة الذاتية في قصيدة «بلقيس». وكيف استفاد الشاعر من فضاء التعبير الشعبي، وتحويل الكلام اليومي إلى لغة أدبية رشيقة ومكتنزة بالتفاصيل والدلالات. وشحنها بطاقة شعرية كبيرة تجلت في طريقته الفريدة لبناء الصورة الشعرية.

الدكتور «عمرو عيلان» رصد الجوانب التركيبية لبناء الجملة الشعرية في ديوان «خمسون عاماً في مديح النساء» مؤكداً على أهمية الإيقاع الموسيقي في قصيدة نزار.

من جهته رأى الأستاذ «محمد علاء الدين عبد المولى» أن المرأة في شعر نزار ليست رمزاً لأي شيء ولا يُحدد وجودها في القصيدة أي شيء من خارج وجودها، فقيمتها في القصيدة تكمن في ذاتها ولا تشكل عكازة فنية لتحميل رموز الوطن والثورة والمستقبل، إنما كانت تقول ذاتها بمعزل عن أي مرجعية أو إضافة أو دلالة وظيفية خارج كينونتها وأحاسيسها.

وأطرف تعليق في الندوة للأديبة «كوليت خوري» تدعي فيه أنها المرأة الوحيدة التي أحبها نزار في حياته، والحديث مسند حسب تصريحها إلى ابنته هدباء التي أخبرتها أنه كان يذكرها على الدوام بحزن وحنين، مع أنه كتب الكثير من قصائد الغزل والتشبب والرثاء لنساء عرفهن، لعل أشهر هذه القصائد رثاؤه لزوجته بلقيس، دون أن يكتب حرفاً واحداً عن أديبتنا الكبيرة التي تدعي وصلاً بنزارها.... ونزارها بعد ثماني سنوات من غيابه لن يمكننا استنطاقه.

في ختام الندوة قدّم المشاركون بها مجموعة توصيات يُمكن إيجازها بالتالي:

1ـ تحويل بيت الشاعر إلى متحف يضم تراثه المادي والفكري.

2ـ إقامة مهرجان شعري دولي يحمل اسم الشاعر.

3ـ تخصيص جائزة للشعر العربي تحمل اسم نزار قباني.

4ـ العمل على ترجمة بعض أعمال نزار إلى اللغات العالمية.

5ـ إطلاق اسم نزار على قاعة أو مدرّج في كلية الآداب في جامعة دمشق.

6ـ طباعة أعمال نزار قباني الكاملة في وزارة الثقافة.

ونحن بدورنا نأمل أن تأخذ هذه التوصيات سبيلها إلى حيّز التنفيذ، وأن لا تكون مُجرّد إنشاء بلاغي.

يذكر أن الأستاذ «محمد صابر عبيد» من العراق أقام في مرسم «مصطفى علي» بدمشق بالتعاون مع دار «كلمات» وبالتزامن مع الندوة السابقة حفل توقيع لكتابه «رسائل حب بالأزرق الفاتح» من بينها رسائل من نزار قباني جعلها في البداية بمثابة تقديم. مع لوحة غلاف للفنانة «سارة شما».

نزار قباني

جانب من الندوة (القدس العربي)

سيمفونيات ناقصة حقاً....

سعدي يوسف

لحصاها فضلٌ على الشُّهُبِ وثراها خيرٌ من الذهبِ
لستُ أرضى السماءَ لي وطناً بدلاً من جزيرةِ العربِ
إنْ بدا الآلُ في مفاوزها قلْ لنهر المجرّةِ احتجبِ
أو (بدا؟) البرقُ....

تتمنى (العروسُ؟) لو لبِستَتْ حلّةً من طرازِها العجبِ
«نشيدٌ في المدرسة الابتدائية»

***

يا أوروبّا، لا تغالي لا تقولي (الوقتُ؟) طابْ
سوف تأتيكِ الليالي نورُها لَمْعُ الحرابْ
«نشيدٌ في المدرسة الابتدائية»

***

الروحُ بعدَ فراقِها الوطنا لا ساكناً ألِفَتْ ولا سكَنَا
«خير الدين الزركلي»
شاعرٌ سوريّ في حاشية فيصل الأول

مديح جزيرة العرب، الذي تلقّيتُهُ في المدرسة الابتدائية، بالعراق الجنوبي، نشيداً، آنَ تحية العلَم الصباحية، كلّ خميس، هذا المديحُ تحوّل مع مَرِّ الأحداث والسنين، من نشيدٍ، إلى أغنيةٍ. هذه الأغنيةُ، بدورِها، تحولّتْ، في الحلُمِ، والكابوسِ، في تفكُّراتِ الليالي الطوالِ (ما أطولَها حقاً!)، إلى سيمفونية، سيمفونية ناقصة...

الطفولةُ تُختَرَمُ

جزيرة العرب، البهية في الأغنية ـ النشيدِ، تُختَرَمُ
الذاكرةُ، ذاكرة الطفل والنخل، والرملِ المتلألئِ ماءً سحرياً
مثل نهر المجرّة...
هذه الذاكرةُ تُخترَم...
الآنَ:
من يأتيني بالقصيدة؟
مَن يأتيني بالنصّ الأول لمديح جزيرة العرب؟
سأكونُ ممتناً.
أرجوك، أيها الصديق....

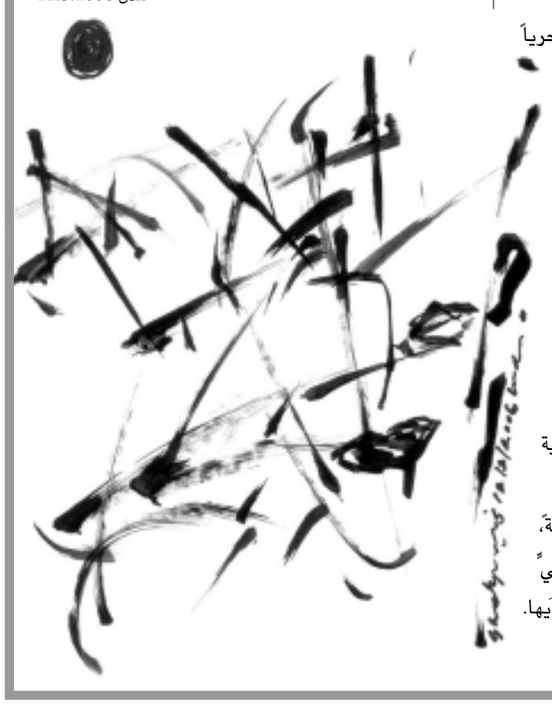

هنا أيضاً، أعودُ إلى ساحة المدرسة الابتدائية، في تحية العَلَم.
كنتُ ـ في ما أستعيده الآن ـ أتصوّرُ أوروبا امرأةً بدينةً، ذات شعَرٍ كثيفٍ منفوشٍ. أتصوّرُها جالسةً على كرسيٍّ ضخمٍ، وحولها حراسُها. إنها تلوّحُ، من عصبيةٍ، بيدَيها. ثم تصيح صيحةَ فرحٍ.
صورةُ الحرابِ إذْ أضاءت الليل لا تزال تبهرني.
ومن جديدٍ، أرجو ممّن لديه نصُّ النشيد أن يتكرّم بإرساله إليّ.
سيساعدُني في أن أعود إلى فتوّةٍ مبتغاةٍ.

***

الصورة بالأبيض والأسود، طبعاً.
الملك فيصل الأول، في أيامه البغدادية الأولى، تحفُّ به حاشيته، من ضبّاطٍ شريفيين، ووزراء، وموظفين.
اثنانِ كانا الرهيفَينِ حقاً (نحافةً) بين مَن في الصورة: الشاعرُ والملك.
أمّا الشاعرُ فهو خير الدين الزركلي، من أهل الشام.
كان في سيماه، و في ملبسه الأنيق جداً، وفي قامته، شبيه فرناندو بيسوا، شاعر البرتغال، ذي الأسماء الأربعة.
حين كنتُ في باريس، ابتعتُ، ذاتَ يومٍ، من سوق براغيث شهير Marche' aux puces، في ضاحية مونتروي Montreuil، الأعمالَ الكاملةَ، لبيسوا، باللغة البرتغالية!
أيّامَها كان العمال البرتغاليون المهاجرون كثاراً في فرنسا، يعملون في الإنشاءات، وشَقّ الطرق.
هل جاء ببيسوا، إلى سوق البراغيث، أحدُ هؤلاء العمال بعد أن أرهقته الحاجة إلى بضعة فرنكات؟
أنا لا أعرف اللغة البرتغالية، لكني أعرف فرناندو بيسوا.
والبرتغالية لغة لاتينيةٌ، على أي حال.
إنها ليست عسيرة المَغالِق.
خير الدين الزركلي، شبيه فرناندو بيسوا، في الصورة...
مَن يأتيني بالنصّ الكامل لقصيدته التي مطلعُها:
الروحُ بعد فراقها الوطنا لا ساكناً ألِفَتْ ولا سَكَنا!

لندن 11.9.2006

قـــص

الذئب

سلام حربة*

■ انا اسمي الان الذئب رحيم.. ابلغ من العمر الخامسة والستين عاما.. تمسك مخالبي الان صيدا ثمينا .. لوحاً مكتنزاً متشحاً بالسواد لا اميزه، رغم صلافة الذئب في عيني الشبقتين، الا من رائحة الانثى التي تفوح منه.. .. ان غادة، وهذا اسمها، مفجوعة من الرعب ومخالب يدي مغروسة في ساعديها الناحلين.. الالم يسمرها في مكانها وكل ردة فعلها ارتعاش جسدها، كالمسوسة بالكهرباء، داخل عباءتها الطويلة.. كانت ترتعد كالسعفة الهزيلة فالخوف يحاصرها من كل جانب كقدر لا مفر منه وقد شل لسانها وتبخر اللعاب من فمها وبلعومها وتاهت الكلمات في صحراء حيرتها.. ورغم صقيع الدهشة لكن حرارة جسدها المثخن بطبقات من الويلات والالم تنتقل الى جسدي باسلاك من اللذة لا تجد غادة صعوبة في اقتفاء لون هذه اللذة ولزوجة حلاوتها في عيني المحمرتين.. نطقتْ بصعوبة وبصوت مرتجف..

ـ رحيم.. لا تنس نفسك..

كنا انا وغادة متجاورين في العمر وفي السكن لا يفصل بين بيتينا الا جدار بعرض طابوقة واحدة وقد خرجنا الى الزقاق الترابي في سنة واحدة.. مارسنا براءة الطفولة وطقوسها واختلينا الى بعضنا في سن الخامسة في لعبة العريس والعروسة.. ما شجعها على الاقتراب مني صداقتي مع اخيها صباح والذي يكبرني بعام واحد وقد تقاسمت معه الطفولة واحلام الشباب ونافذة الفكر .. قد تبدو غادة الان اكبر مني .. لا اعلم .. فانا قد فارقت ملامحها منذ اكثر من خمسة عشر عاما ولكن اجراس انوثتها ما تزال تقرع بين الجنبين الخاويين ولا تفارقني حتى في احلامي الملتهبة بالجوع وعواء الذئب الذي يستوطنني منذ زمن وهو يصرخ ليل نهار لا يكل ولا يشبع..

لم يكن يفصل بين جسدينا، وانا مطبق عليها اطباقة الذئب، الا حاجز بعرض كف اليد، معرض زجاجي تتكدس فيه حاجيات النساء الداخلية وسترهن وطلباتهن الخجولة، فانا اتعامل مع النساء منذ اكثر من اربعين عاما حين فتحت محلا للملابس النسائية في السوق الكبير والذي يطلق عليه سوق النساء حيث يجدن في محلاته العديدة كل ما يحتجن اليه من لوازم واضوية براقة تسطع في بطون المحلات وواجهاتها تكنس الظلام المتكدس في بيوتهن ويبعثرن فيه زمنا فائضا ميتا يزدحم في حياتهن .. فساعات البيوت على الدوام تتساقط عقاربها وساعاتها على ارض الدار وتوحل ايام النساء بالضجر والرتابة واللاجدوى.. في السوق الكبير تشارك النساء نظرات لجوجة لرجال مواظبين على مشاركتهن شارع السوق الضيق حيث تتراص الاكتاف وتختلط الانفاس الحارة بزفير سقف السوق المعدني والذي يقسط اشعة الشمس في الخارج امواجا تدكن الظل المحتمي في السوق وتطعن الوجوه بحمرة نافرة وبحبيبات عرق بلا بريق..

ـ رحيم اتركني .. ان يديك تدميان ذراعي.. ثم ان العيون مصوبة علينا.. لا يليق ونحن بهذا العمر ان نكون فرجة للاخرين..

لم اسمع تلك اللحظة ما كانت تهذي به فليس من عادة الذئب ان يتنصت الى رجاء فريسته.. كان كل همي ان اشبع تلك اللحظة من استدارة وجهها الابيض الجميل، هذا ما نقش في ذاكرتي، والمحجوب عني الان ببرقع اسود.. او ان ارتوي من ذراعيها الناعمتين البضتين المنحوتتين كعمودي رخام يوم كانا يسوران مجرة من التضاريس الشهية التي تفتن النظر.. ما اطلبه الان ان ارى بقعة محسورة من ضيائهما كي يرتوي عطش الذئب اللائب في داخلي والذي لم يذق طعم الاكتفاء والملتهبة غريزته في الافتراس على الدوام .. لم يكن يعنيني عمرها فقد اجتازت عتبة الستين منذ خمسة اعوام ولكني اعتاش على ذاكرة ما زالت ندية يتداخل فيها الزمن ويتخفف وتضيع الملامح والتفاصيل ليلتهم الذئب في النهاية كل شيء بشهية فائقة..

ـ رحيم .. هل تسمعني .. ؟ انا غادة.. غادة التي احببتها منذ اربعين عاما وكدنا ان نتزوج.. هل نسيت.. ؟

اطلقت ضحكة مجلجلة انتبه لها المارون على عجل بقربنا وبقيت رؤوسهم ملتفتة الينا حتى الى حين.. اما اصحاب المحلات المجاورة فلم يكن الامر يعنيهم بشيء حيث ان ذئابهم تنشغل بفرائسها ولم نسمع يوما ان ذئبا نظر بفضول الى ذئب اخر يلتهم غنيمته فالكل ماسك بصيده وتلصف انيابه من الفرح ولا تسمع الا استغاثات الضحايا الواهنة والتي لا ينتبه احد اليها..

ـ انا لا اعرفك يا غادة ولا اعرف نفسي.. والتي تتحدثين عنها لا اراها الا صورا في الذاكرة.. ورحيم الواقف امامك لم يبق منه الا الذئب المختبىء فيه والذي ترينه على بعد اصابع منك..

لم ينطق منها الا عيناها فقد ومضتا بدموع نقية كالبلور، رغم السواد الذي يلف غادة والمتكدس كالليل الابدي من ثوب طويل بأردان لحد الرسغ وكفين صوفيين وعباءة نسائية وبرقع بادل طمأنينة صباح وجهها البهي بالظلام المخيف، دموع تشظت على ضفافها ضياء مصابيح الحلات وحزم الضوء العنيدة وهي تخترق السقف المعدني لتذكّر من في السوق ان هناك شمسا في الخارج ما تزال تشرق.. لقد اعادتني دموعها بزورق الذكريات على امواج الحنين يوم بكت على كتفي وانا في الخامسة والعشرين من العمر في بيتنا في المحلة الشعبية حين وجدت انا واخوها صباح خطيبها سلام مقتولاً برصاصات غادرة ومرمياً على احد الارصفة يومها التصق جسدها اللين بجسدي وربت بيدي على كتفها وذراعيها الممتلئتين في حينها لم اكن ابادل سخونة جسدها الملتهب بالشباب والاثارة الا ببرودة المشاعر الاخوية والنظرات البريئة.. لم تكن لي اخت فانا وحيد امي وابي ولكن غادة كنست الوحدة في بيتنا بضحكات الفتاة البريئة حتى ان والدتي كانت تقول لها ونحن اطفال: ان لن تكوني ابنتي فكوني زوجة ابني رحيم.. كانت تنظر الي بحياء وتمضي هاربة تقضم الخجل بين شفتيها.. وحين كبرنا كانت تتراءى لي اينما وليت وجهي في بيت اهلها حين كنت ازور اخاها ونتبادل الاحاديث السرية والاوراق الممنوعة .. في المحل كانت تزورني باستمرار وحين تدخل السوق كانت تنفتح كوة سحرية من الضياء بجسدها المشوق ووجهها القمري وذراعيها العاريتين وصدرها المرمري لا يفصل الذراعين عن مرآة الصدر الا خيطان واهيان يربطان ظهر الثوب بصدره وينحسر الثوب عن ساقين اسطورتين ملفوفتين باتساق يزيدهما تحليقا في الروح رنين حذائها ذي الكعب العالي وهو يطرق بدلال اسفلت الشارع.. وحين تقف امامي في المحل تسكرني ابتسامتها وغمازتا خديها وثقتها المفرطة بنفسها.. وحتى بعد ثلاث سنوات من اغتيال خطيبها وعند اطلاق سراحي واخيها صباح من السجن الذي كنا من زبائنه الدائمين فتهم كالتحريض والمشاكسة وحيازة الافكار الخطرة تلتصق بنا بشدة كلصقة جونسون يصعب ازالتها من قناعات المتربصين بنا، انتصبت غادة امام واجهة المحل مهنئة بسحنتها الشمعية وكبرياء انوثتها وكانها احدى الهة الاغريق، حيث كنت امسح بنظراتي الباردة البريئة تفاصيل جمالها الاخاذ وقلبي يكاد يخرج من صدري وانا بانتظار الرد على سؤالي بالاقتران منها..

ـ رحيم .. لا اعتقد اني قادرة على الاقتران برجل ثان بعد ان ضاع سلام من يدي .. قررت ان احيا لوحدي في بيت ابي ويبدو ان هذا قدري الذي اختاره الله لي..

ـ ولكنك ما زلت شابة وجميلة ولم تبلغي الثلاثين بعد.. وتعلمين مقدار حبي لك..

وبابتسامتها الهادئة اطفأت نيران قلقي..

ـ لا اشك في حبك لي.. ولكني اعتقد ان بابي قد طُرق وحين فتحته غادرني الحبيب.. لا اعتقد ان قلبي يستجيب للطرق ثانية..

وغابت غادة عني ولم ارها لسنتين متصلتين وتزوجت من فتاة قريبة لي ولكن طيف غادة لم يفارق مخيلتي واجزم انه يلون سماء ايامي باقواس القزح.. كانت مدينتنا هادئة وغافية على ضفتي نهرها الصغير والاحلام تتورد في الليالي على انسامه الباردة. وصحت المدينة على احد الصباحات واذا بقطعان من الذئاب تستبيح سكونها وحرمتها ولم تمض الا حفنة اعوام عصيبة واذا بالذئاب قد تناسلت في نفوس اهل المدينة وابتدأ العواء يعلو في كل ليلة من البيوت والازقة الوديعة وزرعت اجنة الذئاب في ارحام الاحلام المريضة والعقول الخاوية ولأجد نفسي انا رحيم وقد تجاوزت عتبة الثلاثين ان الذئب النابت في داخلي، أسوة بالاخرين، ينمو كل يوم واشعر به وهو يخز احشائي ويشوش صفائي ويصبغ عيني ونظراتي بحمرة قانية..

حتى ملامحي الهادئة تحجرت وحُفرت اخاديدها بقسوة .. لم يكن هذا حالي فقط بل ان من ينظر الى سحن الرجال وعيونهم وسلوكهم سيجد ان في كل واحد منهم ذئباً يتربص في الداخل يكبر ويكبر ويتورد بالعافية ويقتات على صوت الانسان وافكاره واحلامه وتاريخه.. كانت غادة اول من رأى الذئب في عيوني .. كانت نظراته ترعى على صدرها العاري وذراعيها الفضيتين وتفاصيل جسدها الباهرة ويرتشف من حلاوة رحيق ابتسامتها ويحاصر لحظ عينيها السوداوين الساحرتين.. وقفت امامي وهي تداري ارتباكا من لصف جمال جسدها في عيني الذئبتين.. ويداها تتحركان بلا وعي وهما تهشان ذباب فضولي وبحيرة وبنبرة منقوصة الثقة..

ـ لماذا تنظر الي بغرابة؟ الم ترني سابقا؟ ثم ما قصة عينيك؟ انهما دائريتان كعيني ذئب؟

عيناي لا تفارقانها وابتسامة ماكرة على فم مفتوح يفوح بالشهوة..

ـ حقا.. انت ترين الذئب الذي في داخلي.. ؟ ولكني ارى في عينيك حملا بنظرات ذليلة..

ردت بابتسامة ساخرة على شفتيها الورديتين وهي تجاهد في النظر الى عيني..

ـ وماذا سيلتهم الذئب الذي في داخلكم غير العجز الذي في داخلنا؟ كل يوم تتكبل حياتنا بالاصفاد .. انظر الى النساء انهن يهربن من نظرات الرجال .. لقد تهشمت ارادتنا كالزجاج نحن من سيدفع الثمن..

نحن من سيدفع الثمن..

ولت من امامي هاربة وهي تتمتم باشياء غامضة ونظراتي تودعها وهي تتملى تفاصيل جسدها من الخلف.. كنت اراها في ازمنة متقطعة ولكن في كل رؤية جديدة اجد صعوبة في التعرف عليها .. مرة بثوب محتشم طويل وقد غطت رأسها بشال وفي اخرى تسربلت قامتها المشوقة بعباءة سوداء كالليل البهيم وحتى كفا يديها البيضاوين الرقيقين كروحي حمامتين هائمتين غرقت اصابعهما الرخامية بلجة من لون الرماد. تمشي برأس منكسة لا تقوم على النظر الى الاخرين وسرقت الارض كل النظرات الجميلة من عينيها.. وقبل اشهر اغلقت الحياة امام عينيها رغم كبر سنها وقايضت شمسها، وهي من اجمل النساء المسنات في العالم، بخسوف البرقع الدائم فبدت رغم خطواتها الفاتنة وطولها المياس والذي لم يذله الكبر بعد كنخلة سوداء محروقة لا نسغ لحياة فيها.. لكن ورغم الحواجز التي وضعتها غادة بيني وبينها الا ان الذئب الذي يرعى في داخلي ينهش في ذاكرتي ويجلو صدأ الايام لتبقى حية ومشتهاة يسيل لعابي لها ما دام الزمن يباعد بين ضفتينا واجد نفسي ان لا هم للذئب الا في نسج الشراك والحيل، والتي لم اعرفها في السابق،لأسقط غادة بين خيوطها.. وها هي الان بين يدي ومخالبي نافذة فيها ولا توجد قوة في الارض بامكانها ان تحررها من مسكتي هذه وهل سمعتم يوما ان ذئبا افلتت منه ضحية.. ؟ كان صوت استغاثتها يأتيني ضعيفا فلم يعد لها القدرة على التحمل..

ـ ارجوك رحيم اتركني..من اجل تلك الايام الجميلة التي عشناها معا..

كانت نبرة صوتها الصافية والتي لم تُشخط بابرة الزمن ترن لها اجراس اللذة وتشحذ همة الذئب فتحمر عيناي من النار التي تأكلني.. لم اعد اطيق صبرا وهي تتلوى كالمذبوح بين يدي.. ازحت طبقات السواد عن بطن ذراعها اليمنى. كانت رقيقة ناصعة البياض لم تداعبها شمس او عين منذ سنين.. كانت تنظر الي غير مصدقة وعيناها نافرتان تكادان تلامسان البرقع الاسود.. كان لعاب الشهوة يسيل من بين انيابي .. اطبقت على الذراع بفكيّ النهمين. كانت انيابي منغرسة في شرايين حياتها، ودمها يندفع بقوة في جسدي.. غادة بدأت تترنح من الاعياء .. تتلاشى.. تطاير اثرها وابيض سواد مظهرها كغمامة فوق الرؤوس. امطرت الارض بالانين وبالتفاتة سريعة من عيني الذئب في وجهي لم تعد غادة موجودة امامي .. انا ثمل بنشوة الغياب .. غادة الان لذة دائمة في ذاكرتي.. ولا شيء غير اللذة..

* كاتب من العراق